من رجال البطولة في عصر الحروب الصليبية :

ابن الأثير

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

إخوة ثلاثة ، بلغوا حظاً كبيراً من المجد العلمي ، والمنزلة الرفيعة في الحياة ، وخلود الذكر بعد الموت . أما أكبرهم فمجد الدين المبارك (٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) الذي كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو ، وله فيها مؤلفات ، لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم . وأوسطهم عز الدين علي (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) المبرز في التاريخ ، والمصنف فيه عدة مصنفات ، أهمها الكامل الذي يعد مرجعاً من أشهر المراجع . وأصغرهم ضياء الدين نصر الله ، الأديب الوزير ، وهو الذي نريد الحديث عنه . ومع اختلاف مناحيهم في الثقافة شغفوا جميعاً بالأدب وألفوا فيه . وتحتفظ دار الكتب بوسائل المبارك الأدبية ، وبكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور لعز الدين . أما أصغرهم فكان أوفاهم حظاً من الأدب وبلوغ أسمى المناصب ، وإن قصرت به سياسته عن أن يحتفظ بما ناله من سلطان وجاه .

ولد نصر الله في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣) بجزيرة ابن عمر ، وهي بلدة على دجلة في شمال الموصل وبالقرب منها . وإذا كان التاريخ لم يتحدث عن والده محمد بن محمد بن عبد الكريم فأغلب الظن أنه كان ميسور الحال يسراً هيأ لأولاده أن يتفرغوا من الثقافة وأن يتفرغوا لها .

وانتقل نصر الدين مع والده إلى الموصل حيث تثقف بها ، فحفظ كتاب الله وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وأخذ بحظ صالح من النحو واللغة ، أما علم البيان فقد خصص له أكثر وقته ، ووقف عليه معظم جهوده ، فقرأ فيه الكتب النظرية ، وأقبل على دواوين الشعراء يحفظ منها ما يشاء ، فدرس ما ألف في البلاغة ، وعرف ما انتهى إليه العلماء فيها ؛ ومن أهم ما قرأه منها :

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، والتذكرة لابن حمدون البغدادي ، وكتاب أبي العلاء محمد بن غانم ، والأقصى القريب للتنوخي ، وكان معجباً بكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، « غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا » ، كما قال في المثل السائر . أما علمه بالشعر ، وحفظه له ، فقد قال عنه في كتابه : « ولما نصبت نفسي للخوض في علم البيان ، ورمت أن أكون ممدوداً من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور ... »

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وأبي عبادة الوليد ، وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين لأمثال السائرة وحكمة الحكماء » .

وأخذ ابن الأثير كذلك بحظ من الحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ولست أدري إن كان قد عرف لغة غير العربية ، مما هيأ له أن يحكم على الالتفات بأنه خاص باللغة العربية دون غيرها من اللغات[1] ؛ وأرجح أنه كان يعرف الفارسية والتركية ، كما يدل على ذلك حديثه عنهما في كتابه[2] ؛ وكان ابن الأثير متعصباً للغة العربية ، مؤمناً بأنها سيدة اللغات ، لما أوتيت من خصائص في تركيب كلماتها ، وما منحته من سعة ودقة جمال .

أما موقفه من الفلسفة فموقف المبغض الزدري ، يرى في دارسيها من أمثال ابن سينا والفارابي رجالا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون .

ولما استكمل ابن الأثير ثقافته ، مضى يريد الاتصال بصلاح الدين ، فأوصله القاضي الفاضل إليه في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧

(١) المثل السائر .

(٢) ص ١٦٤ س ٢٥١

وقرر له صلاح الدين مرتباً ، ولكنه لم يلبث فى صحبة صلاح الدين بضعة أشهر ، حتى طلبه الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة فى خدمته ، والانتقال إلى ولده ، فاختار ولده ، ومضى إليه فى شوال من تلك السنة . ولعل الباعث له على هذا الاختيار رغبته فى أن يكون بمكان يستطيع أن يظفر فيه بسامى المناصب وقوى النفوذ ، ولن يكون ذلك مع صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل . وحقق ابن الأثير أمنيته عند الملك الأفضل ، فقد استوزره ، وتم بما كان يبغيه من السلطان . فلما مات صلاح الدين ، وصارت دمشق إلى الأفضل انفرد ضياء الدين بتدبير شئون الملك ، وتصريف أمور الرعية ، وأصبح صاحب الحل والعقد . ويجمع المؤرخون على فساد سياسته الخارجية والداخلية فقد توترت العلاقات بين الأفضل وملوك أسرته ، بسوء تدبير وزيره ، ونفرت الرعية من حكمه ، وكان له بلا ريب أكبر الأثر فى المصير المحزن الذى انتهى إليه مليكه بعزله عن الملك . وكثيراً ما أشار العادل على ابن أخيه أن يقيله فلم يكن يفعل ؛ وهجاه الشهاب فتيان الشاغورى فقال :

متى أرى وزيركم وماله من وزر
يقلعه الله فـــذا أوان قلع الجزر (ى)

وبلغ من سخط الشعب أن الناس هموا بقتله عند ما نزل الأفضل عن عرش دمشق ، فأخرجه الحاجب مستخفياً فى صندوق مقفل عليه ، ولكن ذلك كله لم ينزع ثقة مليكه فيه ، فصحبه أنى ذهب وحضر إلى مصر فى صحبته ، عند ما جاء الأفضل وصياً على العرش لابن أخيه العزيز . وظل ابن الأثير فى خدمة الأفضل حتى أواخر سنة ٦٠٧ بعد نحو عشرين عاماً قضاها فى صحبته ، ثم تنقل بين حلب عند الظاهر غازى ، والموصل ، وإربل ، وسنجار ، ولكن لم يطب له المقام فى واحد منها ، فعاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامة ، وكتب الإنشاء لصاحبها : ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود ، وكان ذلك سنة ٦١٨ ، وبقى بالموصل زهاء عشرين عاماً أخرى . وفى رحلة له إلى بغداد ، يحمل رسالة من صاحب الموصل توفى بها فى إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ (١٢٣٩ م) ، ودفن هناك .

كان أظهر صفات ابن الأثير إعجابه بنفسه ، وإعجابه بمواهبه ، تلمس ذلك فى كل خطوة تخطوها فى كتبه ، فتراه حيناً يعرض عليك نماذج من رسائله ، معجباً بها ، منوهاً بقدرها ، مبيناً ما استطاع أن يصل إليه فيها من معان جديدة ، وأفكار مبتكرة ، وحيناً يوازن بين كلامه وكلام غيره ، ليقنعك بجودة ما خطته براعته ؛ وفى نظريات البلاغة كثيراً ما تراه يقدم إليك آراء يعدها من مبتكراته ، أو يأخذ بيدك لتلمس ما زاده هو على آراء من سبقه .

وإنا نقر لابن الأثير أنه كان من مجتهدى هذا الفن ، وأن أكثر كتابه كان ناشئاً عن تجارب لصاحبه ، وعن تقليبه النظر فى ألوان الكلام ليستخلص منه وجوه حسنه ، وإن كنا نعرف أنه يغالى أحياناً فى ادعاء الاختراع لمعانى رسائله ؛ قال ابن خلكان « ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة وهى : ودولته هى الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس ، فهى خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يسلى ، والوصل الذى لا يصرم . وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام فى صحفها ؛ ولا أجالته الخواطر فى أفكارها .

أقول : لعمرى ، ما أنصف ضياء الدين فى دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه إليه ابن التعاويذى فى قصيدته السينية التى مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، أول يوم جلس فى دست الخلافة ومنها :

ورأى الغانيات شيبى فأعرضن ، وقلن : السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد ، وقد أضحى شعاراً على بنى العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذى هو الذى فتح الباب ، وأوضح السبيل ، فسهل على ضياء الدين سلوكه .

وتنوعت أغراض الرسائل التى كتبها ضياء الدين بين سلطانية وأخوية ، وهى رسائل دسمة ، فيها كثير من معانى ما حفظه من قرآن وحديث وشعر ، وكثير من الأمثال والإشارات التاريخية ، فقد كان ابن الأثير مثقفاً ثقافة أدبية قوية ، والتزم فى

رسائله السجع ؛ لأنه كان يراه أعلى درجات الكلام ، ولا يرى وجهاً لمن يذمه سوى عجزه عن أن يأتى به ؛ وإلا فلو كان مذموماً ما ورد فى القرآن الكريم ، ويعلل وجهة نظره فى استحسان السجع بأنه اعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع .

وجمعت رسائله فى ديوان بلغ عدة مجلدات ، يبلغ المختار منها مجلداً واحداً ، ولكنى لم أعثر على هذا الديوان ، بل رأيت نماذج له كثيرة فى كتابيه المثل السائر ، والوشى المرقوم .

وبلغت ثقته بنفسه فى إنشاء الرسائل ، والعلم بقوانين البلاغة حداً كبيراً ؛ فكان يعارض شيخ الإنشاء فى عصره : القاضى الفاضل ؛ يكتب فى أغراض كتبه ، وحيناً يعرض له من المعانى ما يراه قد نقص عبد الرحيم ؛ فمن ذلك أنه قد عرض عليه كتاب له ، أرسله إلى بغداد على لسان صلاح الدين سنة ٥٧١ ، وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة : من فتح مصر ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيها ما قاساه فى الفتح من الأهوال ، فلما تأمله ضياء الدين ، وجده كتاباً حسناً ، قد وفى فيه الموضوع حقه ، إلا أنه أخل بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها فى عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها ، فلما عارض ضياء الدين رسالة القاضى الفاضل ، أشار فيما أشار إلى الشبه بين فتح مصر وفتح مكة ، وقال بعد أن أورد هذه الرسالة التى أنشأها : وجمعت من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه . وانتقد القاضى الفاضل مرة أخرى وإن لم يصرح باسمه عندما رآه يشبه حصناً من حصون الجبال بأنه أعلة ، قال : فأى مقدار للأعلة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ؟ !

وكان يوازن بين رسائله ورسائل الصابىء الكاتب ليرى مقدار تفوقه عليه ؛ وهو يرى فيه أن عقله زائد على فصاحته وبلاغته ، ذلك أنه يورد فى كلامه وصايا وشروطا ، واستدراكات وأوامر ، ما بين أصل وفرع ، وكل وجزء ، وقليل وكثير ؛ إلا أنه عبر عنها بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف .

أما موقفه من علماء البلاغة فموقف الناقد المحاسب لا القابل المسلم ، يورد أفكارهم ، فيقبل منها ، ويرفض ، مناقشاً ، مدعماً رأيه بالحجة ، وإن جانبه الصواب أحياناً . وما كان يرى أن يدخل علماء النحو فى الأمور البلاغية حتى لا يصدروا أحكاماً لم تؤهلهم لها دراستهم ؛ وهو لذلك ينتقد أبا الفتح بن جنى عند ما شرح قول أبى الطيب :

كل جريح ترجى سلامته إلا جريحاً دهته عيناها
قبل خدى كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

فظن ابن جنى أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم فيخرج الريق من فمها ، ويقع على وجهه فشبهه بالمطر ؛ قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال فى غيره ؟!

وأما رأيه فى الشعراء فإنه يرى الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا . « ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة . وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها » . وهو فى هذا الفصل من كتابه يورد آراء بعض الناقدين فى الشعراء ويناقشها كعادته .

ومع تعصب ابن الأثير للعربية ، يقر بفضل العجم فيما أوتوه من القدرة على الإطالة الفرطة فى الشعر ، « فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو

قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

وألف ابن الأثير كتباً بعضها لم أعثر عليه .

١ — كتابه فى السرقات الشعرية الذى حدثنا عنه فى المثل السائر .

٢ — كتاب كنز البلاغة الذى أشار إليه السبكى فى شرحه على التلخيص .

٣ — كتاب مختارات اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ، قال عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد كبير ، وحفظه مفيد » ، وقال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقاً نفيساً فإنه اختيار بصير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

٤ — كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء .

٥ — الكتاب الرسع فى الأدبيات ، وقد طبع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٤ .

٦ — أما أهم كتاب له فهو المثل السائر الذى حاول أن يضبط فيه قواعد البلاغة ، ونهج فى تأليفه نهجاً أدبياً عملياً ، لا نظرياً جافاً ، وملأه بالأمثلة وبيان مواضع الجمال ، ونقد مواطن القبح ، وعقد الموازنات ، وهو يعد من أسس كتب البلاغة ، وكان لهذا الكتاب وقع كبير فى الدوائر البلاغية فعندما وصل هذا الكتاب إلى بغداد انتقده الدائى بكتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر ، وانتصر أبو القاسم السنجارى المتوفى سنة ٦٥٠ للمثل السائر ، فألف كتاباً سماه نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر ؛ وتستطيع أن ترجع إلى كشف الظنون لترى ما أثاره هذا الكتاب من دراسات .

٧ — وكتابه الوشى المرقوم فى حل المنظوم منهج تطبيق لفكرته التى يدعو إليها ؛ ذلك أنه يرى الكاتب محتاجاً لحفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار الكثيرة بقدر المستطاع . وفى هذا الكتاب يبين بطريقة عملية كيف نستفيدها نثراً ونحفظ فى ترقية أسلوبنا والثروة فى معانينا ، ولو أن الفتات التى نبه عليها ابن الأثير ، فى المعانى والعناية بها ، وكيف نستنبطها ، ونبتكرها سارت فى طريقها ، ولم تعقها الدراسات النظرية المحضة لكان لبلاغتنا اليوم شأن جد رفيع .

وله بدار الكتب :

٨ — كتاب مؤنس الوحدة ، جمع فيه أشعاراً وأخباراً فى المدائح والأوصاف والتشبيهات .

٩ — كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا ، بدأه مبيناً فضل صناعة الإنشاء ، وأنها أشرف صناعات الممالك ، « فهى اليد اليمنى التى بها الأخذ والعطاء ، والمنع والإمضاء ، والقبض والبسط » ، فلا جرم كان من الواجب أن يختار لهذه الصناعة رجل تتوافر فيه صفات خاصة بين عقلية وخلقية وثقافية . ورتب الكتاب على بابين : أولهما فى مراتب الكتب والمخاطبات ، والثانى فى الأدعية والانتهاءات ، فذكر ما تبدأ به الرسائل ، والألقاب التى يخاطب بها المرسل إليهم ، والدعاء لهم . وذكر فصلا فى الأدعية لأرباب غير الملة الإسلامية ؛ وأورد الصيغ التى يقدمها الكاتب بين يدى مراده . كما شرح فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولابن الأثير شعر قليل ، لا يضارع قوة نثره ، ولعل من أجوده قوله :

وسائلونى عندكم كيف حالتى وذلك أمر بين ليس يشكل
فمن قلبه ، لا تسألوا فهو عندكم وأما عن الجسم المخلف فاسألوا .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع :
(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٨ و ٤٠٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ٤٠٤ (٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٨٧
(٤) كتبه . (٥) صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٦ .
(٦) الروضتين ج ١ ص ١٩٢ و ج ٢ ص ٢٢٨ .
(٧) السلوك ج ١ ص ١١٥ و ١١٦ و ١١٨ و ١٢٢ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٥١ . (٨) نثر الجمان — القطعة الثانية ص ١١٦
(٩) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٥ و ١٦٢ و ٢١٨ (١٠) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول — الجزء الثانى ص ٨٢ (١١) معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٢
(١٢) شرح السبكى على التلخيص ص ٨٢ ج ١ شروح التلخيص
(١٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٨٩
(١٤) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥
(١٥) كشف الظنون ج ٢ نهر ١٥٨٦ و ١٩٤٨
(١٦) معجم المطبوعات العربية لسركيس ج ١ نهر ٣٥